



كونفوشيوس الرجل والمذهب

أ.د. حامد طاهر

عاش المفلايسوف الصيني كونفوشيوس 72 عاماً. ويقال إنه ولد من لقاء غير شرعي، لأب من أسرة عريقة وأم فقيرة. وفي بدايته خدم أحد الأمراء، فكلفه برئيسي الأختام التي ازدهرت على يديه، فعينه مشرفاً على الحدائق العامة بالولاية. وبعد سن العشرين، انتقل إلى ولاية أخرى، حيث أنشأ مدرسة خصصها لاصحاب المواهب لكي يتعلموا فيها أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية، وفيها تخرج آلاف الشخصيات الذين أصبحوا فيما بعد قادة الفكر والسياسة في الصين.

وعندما ذاعت شهرته، أصبح مستشاراً لكثير من الولايات والأمراء والبناء في الشؤون السياسية، كما عمل قاضياً في أحدى الولايات، ثم عين وزيراً للأشغال العامة، وأخيراً عينه حاكم ولاية (لو) رئيساً للوزراء في الولاية، وبفضل حسن إدارته جعلها من أفضل الولايات، الأمر الذي أثار غيرة حكام الولايات الأخرى، فدبروا مكيدة لإفساد حاكمها وحاشيته، استقال على إثرها كونفوشيوس، وراح يتتجول في سائر الولايات الصين، مقدماً تحكماً لها النصائح، وبعلم الناس، ويناظر العلماء، حتى توفي سنة 479 قبل الميلاد. وقد أُنجب كونفوشيوس ابنًا واحدًا، لكن ترك حفيداً لجده اسمه (تزوتين)، أصبح هو الآخر عالماً وفليساً، كما قام بدور هام في نشر فلسفة جده.

يعتبر الصينيون كونفوشيوس نبياً ورسولاً. وأفكاره وتعاليمه هي أساس عقيدتهم التي ظلوا يدينون بها على مدى خمسة وعشرين قرناً، ولم يقابلها سوى البوذية التي نشأت وانتشرت في الهند، ثم انتقلت إلى الصين، وجدت ما يزيد على ثلث عدد السكان. وقد انزوى مذهب كونفوشيوس عندما طبق النظام الشيوعي في الصين سنة 1949، لكنه عاد في السنوات الأخيرة للظهور بقوة، وخاصة عندما أخذت البلاد بنظام السوق الحر في الاقتصاد، بل إن الدولة الصينية الحالية تسعى لإنشاء مراكز لفكر كونفوشيوس في مختلف عواصم العالم وجامعاتها الكبيرة، ومنها جامعة القاهرة.

ت تكون مؤلفات كونفوشيوس من خمسة كتب تسمى: الكلاسيكيات الخمسة: هي:

- 1- كتاب الأغاني أو المشعر.
- 2- كتاب المatriخ.
- 3- كتاب التغيرات.
- 4- كتاب الربيع والخريف.
- 5- كتاب الطقوس أو التقاليد.

وقد قام تلاميذه بعد ذلك بوضع أربعة كتب أخرى، لتلخيص وشرح هذه المكتبة الخمسة، فأصبح لدينا تسعة كتب تمثل المصدر الأساسي لمذهب كونفوشيوس.

أما أسلوب كونفوشيوس فهو عبارة عن صياغة حكم ومواعظ وأمثال تتناول موضوعات مختلفة، ولها يربطها خيط منطقي موحد. ومع ذلك، فقد استطاع الباحثون الصينيون، ثم الأوربيون فيما بعد، أن يستخلصوا منها مذهبًا متكاملًا في السياسة والاقتصاد والدين وغيرها من المجالات. أما المسمة الثانية لأسلوب كونفوشيوس فيحدها د. حسن سعفان بأنه كان أول فيلسوف في العالم، قبل أرسطو، يستخدم القياس المترتب. ومن أمثلته: «إذا فهم الإنسان طبيعة الصفات الأخلاقية فإنه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردي والأخلاقي». وإذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردي والأخلاقي فإنه سيفهم كيف يحكم الناس. وإذا فهم كيف يحكم الناس فإنه سيفهم كيف يحكم الأئم والآباء والطوريات».

ويتلخص المذهب الأخلاقي والسياسي عند كونفوشيوس في أن أي نظام اجتماعي صحيح ومتكملاً إنما يقوم على تزويد الأفراد بالأخلاق الكريمة، وهذا يتحقق بال التربية والتعليم إلى جانب وجود حاكم على خلق قويم، يكون قدوة لشعبه، ونمودجاً يحتذى به الجميع. ويرى كونفوشيوس أن الأخلاق إذا وصلت في المجتمع إلى مستوى المنشود ألغت عن القوانين والتشريعات والقضاء. يقول: «إنك إذا قدت الناس وفق قوانين إجرامية، وهدتهم بالعقاب فقد يحاولون ابقاء العقاب، ولكن لن يكن لديهم شعور بالشرف. ولكنك إذا قدتهم بالفضيلة، ونظمت شئونهم بالتربية فإن علاقاتهم ستقوم على أساس الشرف والاحترام».

ولكي يرسخ كونفوشيوس الأخلاق الحميضة في نفوس الناس، استعان بالموسيقى وبعض الفنون التي تؤثر في الجماهير كالشعر والغناء والرقص، كما استعان بالطقوس الدينية القديمة والعادات والتقاليد التي تؤلف بين الأفراد وتشعرهم بالوحدة والتضامن. أما مصدر القانون الأخلاقي فيؤكد كونفوشيوس بأنه: الله أو السماء، فهو الذي شرع الأخلاق ونظمها، وجعلها ثابتة لا تقبل التغيير. وقد أودع الله في كل إنسان جوهر الأخلاق من خلال من حه العقل. فكل فرد منا يشعر شعوراً واضحاً بأن هذا العمل أو ذلك أخلاقي أو غير أخلاقي. وحين يخطئ بعض الناس في معرفة الخير والشر فإن التعليم يُسرع بتقديم التعريف والتوجيه للآذنين لهم.

ويرى كونفوشيوس أن الفرد إذا ما تم تعليمه وتربيته أخلاقياً، فإنه ينقل ذلك إلى أسرته، والأسرة إلى المجتمع، والمجتمع إلى الإنسانية كلها. وهو يحدد عشرة فضائل لاتخاذها أساساً لعلاقات الأفراد:

- 1- عطف والد على أولاده.
- 2- احترام الماين لأبيه.
- 3- معاملة الأخ الأكبر لأخيه الأصغر باللين.
- 4- خضوع الأخ الأصغر للأكبر، مع احترامه له.
- 5- تحلي الزوج بحسن المخالق.

- 6- طاعة المزوجة لزوجها.
- 7- حسن معاملة الكبار للصغار.
- 8- طاعة الصغار للكبار.
- 9- حسن معاملة المحاكم لرعاياها، وعطافه عليهم.
- 10- إخلاص الوزراء والولاة في أداء مهامهم.

أما المحاكم فيحدد له تسعه أخلاق، تتلخص جميعاً في أن يكون «أبا الشعب»، يكرس نفسه له، ويغطف عليه، ويستمع لصوته «لأن ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئاً آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه، وما يعتبره الشعب جديراً بالثواب والعقاب هو ما تعتبره السماء جديراً بالثواب والعقاب. فهذا اتصال وثيق ومستمر بين السماء والشعب. وعلى من يرون أمر الشعب أن يراعوا ذلك ويتدبروه ». الواقع أن كونفوشيوس يربط في منظومة ثلاثية بين الله والحاكم والشعب. فهو يرى أن بقاء المحاكم يتوقف على رغبة الله وإرادته، وإرادة الله هي إرادة الشعب. فإذا ذال المحاكم عطف الشعب وحبه فإن الله السامي ينظر إليه بعين المرضى ويوطد عرشه، أما إذا فقد حب الشعب وعطفه فإنه يصب غضبه عليه، ومن ثم يفقد دولته ».

وبالنسبة إلى مذهب كونفوشيوس المديني، فليس يمكن القول بأن الفيلسوف الصيني قد جاء بدين جديد، لأنه يعترف بكل الأديان التي كانت شائعة من قبله في الصين، بل إنه استمد منها بعض العناصر، وأدخلها في بناء مذهب متكامل يقوم على أساس أن الله أو السماء هو صانع هذا العالم، بكل ما فيه، وفق قواعد منتظمة لا تخلُّ، وهي تكون في مجموعها القانون الإلهي في الطبيعة، الذي يقابله القانون الأخلاقي في الإنسان. فكما يوجد نظام مستقر للشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال.. توجد في الإنسان سبعة انفعالات رئيسية هي: الفزع والغضب والحزن والحب والكره والخوف والرغبة.

وتتمثل الرغبة في ميل الإنسان إلى المأكل والشرب والجنس، كما يتمثل الخوف في المخيبة من الموت والمفرد والألم. وهذا فإن كلًا من الرغبة والخوف يلخص القوى الدافعة للعقل أو المقلوب الإنساني التي تقربه أو تبعده من القانون الأخلاقي، الذي هو نظير القانون الطبيعى. والنتيجة أن الإنسان العاقل هو الذي يوازن بين هذين القانونين بحيث يجعلها يتطابقان ويتكاملان، بدلاً من أن يتعارضاً أو يتناقضاً ..

إن الدين أساسى في قيام المجتمع الناجح. والمطقوس وتقديم المقربين هي التي توحد بين أفراده، وتشيع بينهم روح التضامن والأخلاقة، كما تقرب بينهم بالمودة والحب. وقد حاول كونفوشيوس أن يربط حياة الناس الجافة بالموسيقى إلى جانب بعض الفنانون الآخرين كالشعر والغناء والرقص، لكي يرهف مشاعرهم، وبهذب حركتهم، ويعودهم المليقان المنتظم بهدف تقريبهم من القانون الإلهي في الطبيعة، الذي يتوازى تماماً مع القانون الأخلاقي في الإنسان. وبهذا الشكل استطاع أن يقدم للصينيين مذهبًا تقوم أركانه على الأخلاق والسياسة والمطقوس الدينية المتوارثة، ثم الآداب والفنون. وهو الأمر الذي جعلهم يعتبرونه «ديننا» مازالوا يتمسكون به حتى اليوم .